بلاد الشمع والعسل

هالة الجمسي

تساقطت حبات المطر على النافذة كضيف يبلغك بقدومه، أرهفت السمع وكأنها تتلقى رسالة من شخص عزيز جاء بعد قرن من الزمن، عيناها معلقتان تراقبان رذاذ الريهام بضجيج يتهاوى ليحتضن تراب الأرض بلهفة، فيضـــمه التراب مسرـعا. وضـــعت بعض من حبات السكاكر بالمعطف واتخذت خطواتها للخارج تستنشق عطر السيل يتســـلل بين حنايا جوارحها، فتتأجج الذكرى معه، زادت قطرات المياه بعمق وكأنها ترحب بضيف منتظر، تدحرجت قطرات تعانق وجهها كطفل يريد أن يلثم وجه أمه ثم ســـقطت بيأس دون أن تلفت انتباهها، انتحار قطرة الماء تهتف أسما في شجن وكأنها عجوز تنتحب، خطواتها تســـير والأفكار شـــاردة فالخطوات تعلم إلى أين تتجه، بمنعطف الطريق، عجوز يدفع بيدين ملأتها التجاعيد عربة خشـبية متهالكة تســتند على إطارين من خشـــب ذا ألوان مبهجة، وأعلاها يتصـاعد خيط رفيع من دخان بفرن صـاج قد احتوى على بضـع حبات بطاطا، وقد رفع العجوز عقيرته بالغناء بصـوت أجش مردد:

"أيها الراقدون تحت التراب"

يلتقط من خلف الفرن الصغير، نرجيلة صنع يد، يمتص من رحيقها وينفخ بعزم فيداهمه السعال فيصدر صدره أزيزا وحشرجة وتفيض عيناه دمعا، ثم يهدأ قليلا ليواصـــل الغناء ثانية وهو ينظر للســـماء وكأنه يعاند الأمطار:

"قولوا لعين الشمس"

يدفع عربته مكملا ســـيره تحت المطر. وقد وبخته الأمطار وبللت جلبابه الداكن اللون، فصـــار يكبكب الماء بكل خطوة معه، على جانب الطريق المقابل همس زوجين سارا معا يقتسمان مظلة واقية من المطر، واحدة تستقيم بأناملهم معا وقد امتزجت ضحكاتهم مع إيقاع المطر وخطوات ثلاثية تتبعهم لعجوز يســـتند على عصـــاه يهتف لها بضجر:

_هلمي حتى لا يصيبنا برد أو ينال منا مطر؟

وشوشة عشرينية وهي تدفع عربة أطفال صغيرة تطمئن عن المغطى بشراشف زاهية وتحيطه كبوة العربة الصغيرة من علو.

_لا تخشى شيئا يا صغيري أنه بعض المطر.

من بين بوابة حديدية اندفعت جموع أطفال بصـخب بملابس بنية وأحذية سـوداء يتخذون الشرفات سـاترا من المطر، تضـم قبضـتها وتخرجها من المعطف ممتلئة تمد يديها، بعض الأطفال يهرب خوف والبعض يقبل ويلتقط.

منبوذ يسـير وحيد وحقيبته الجلدية يتخذها خوذة أقبلت نحوه ثم مدت يدها بقبضـة ممتلئة بالسـكاكر فالتقط واحدة فقط وأبتسـم قالت برجاء:

_خذهم كلهم.

ابتسم بخجل وهمس:

_شكرا

لمعت عيناها بدمع فسـيره بعيدا عن الجموع ذكرها به فتسـاءلت بنهم:

_ما أسمك؟

بوجه شـاحب وشـفاه ترتجف من المطر وشـعر متهدل على الوجه التصق به المطر أجاب بصوت منخفض:

_أدهم

خفق قلبها بين الضلوع كطائر يهوي من علو، ارتجفت ساقاها وكأن حملا زاد على الكتف، وأكملت المسـير لوجهتها وهي تبتلع غصـة تجتز من ذاتها.

على مقعد خشـبي وحيد بحديقة أزهار توقفت الخطوات، وشـجرة يتيمة عملاقة تقوم بحراسـة المكان تمتد فروعها وأغصـانها لتظلل المقعد الخشبي وكأنها تعلن هيمنتها وسيطرتها على المكان، وبعض أراجيح للأطفال وكشك خشبي بآخر الحديقة، جلست بصمت وهي تعود إلى سبع سنوات مضت حين همس لها كل شيء كما هو وكأنه اليوم:

_ثقي بي سأعود فقط بعد عام ونتزوج ونكون معا للأبد.

كان جسدها يرتجف خوفا فهتفت بفزع:

_لا ابقى هنا ونكافح سـويا، لا أريد سـجاد عجم أو تلفاز حتى، أنا أريدك أنت.

هز رأسه بإصرار وهتف بضيق:

_ ولكن أهلك يريدون، كل عائلة تتمنى أن تبدأ ابنتها إلى آخر ما هم توصلوا له لا تكوني طفلة يا صفاء، نتعب عاما ونهنأ باقي العمر.

ارتعدت شفتاها بزرقة وغاص قلبها بين الضلوع وهي تتوسله:

_أرجوك!!!

أمسك يديها وقبلها ثم همس:

_سأسافر لأجلك، وأعود لك، كافحت سنتين بعد التخرج ولم أستطيع خطبتك، حتى مشروعنا المشترك الذي كان حلمنا تصدت له ضمانات البنوك فنحن لا نملك حائطا نستند عليه، والغلاء كحيوان كاسر يزداد وحشية سعارا، دقيقة تلو الأخرى وليس عاما عن عام.

استنكرت بدهشة:

_نمتلك شهادتنا نحن معا...

هز رأسه مقاطعا إياها:

_ تلك المنشأة الصناعية التي وافقت على العمل بها، فر رجل الأعمال منها بعد تراكم الديون والضرائب عليه وترك العمال مشردين، ماذا أنتظر أكثر؟!

هتفت بتوسل:

_ابحث عن منشأة صناعية أخرى..

هز رأسه بضيق ثم تابع:

_ ما تحصلت عليه من شقاء سنتين، وافق عطوة صاحب المركب على أن يأخذه لأنضم لهم بالمركب الذاهبة إلى هناك....

همست برعب وهي تتخيل مداهمة البحرية لهم وسجنه:

_ولكنها هجرة غير شرعية، ماذا لو سجنت أو يا إلهي.

هتف بسخط:

_لو كنت أملك المال للسفر الشرعي ما كنت لجأت للموج العالي.

نظر لها بحب ودفء يهدئ روعها:

_محسن رفيقي سافر بنفس الطريقة وناصر وعادل، لا تخافي سأكون هناك معهم.

جال ببصره بأنحاء الحديقة للكشك المترامي بآخر الحديقة، تسكنه خمسينية تتخذ من بعض الأشجار الجافة موقدا، تلتحف الأرض بعباءتها السوداء ووشاح أسود، وبراد قديم علا السواد جوانبه، نظرت له وهي تعلم جيدا أن كوب الشاي مقصده فجاءت بخطوات مسرعة على صينية مستديرة بكوبين التقط الكوب الأول ووضعه بين يديها ثم همس لها:

_تدفئي!!!

والتقط الكوب الآخر وهو يضع بيد المرأة عشرة جنيهات فتطلعت له ثم قالت:

_لا يوجد معي نقود معدنية لأعطيك ما تبقى.

ارتشف من الشاي قليلا ثم غمغم:

_دائما ناقص سكر، ليتك مرة واحدة تخطئين وتضعين ملعقة زائدة من السكر.

تجاهلت كلماته وأطرقت للأرض صامتة، فأخرجت صفاء مكعبات السكر من حقيبتها وتضعهم بكوب الشاي الخاص به وهتفت بها:

_خذي الباقي لك وأمطرينا دعوات:

ابتسم أدهم قبل أن يغمز لصفاء ثم نظر لقطرات ماء قد تساقطت من السماء وهتف:

_لقد فتحت أبواب السماء.

وحين انهمر المطر لم يتحركا من أماكنهم إلى أن توقف المطر ولاح قوس قزح، فاتخذا سبيلهم للعودة وهو يطمئنها:

_سأعود لك.

أطلقت لدموعها العنان ثم همست:

_أخشى أن تروقك حورية بلاد الشهد والعسل.

أشفق عليها من غيرتها فهمس من جديد:

_سأعود لك.

فغمغمت بصبر:

_سأنتظرك!!!

قالوا لها ناصر تلغرافيا لم يصـــل أبدا هناك، وهمس عادل وهو بإجازة قصيرة لأهله:

_أنه لمح هناك من يشابه أدهم يتسول بين الطرقات.

ثم غمغم باستحياء:

_يعزف لحنا ما بين الطرقات ولكنه اختفى بين الزحام.

أما محسن فلم يعبأ حين وصلته الرسالة أن يجد جوابا؟! أما عطوة صـــاحب المركب فذاب كالملح بالماء وكأنه لم يكن له أثر من الأساس.

وأشفق أخر عليها فأخبرها أنه ابتلعته الأمواج قبل أن يصل، تنهدت بعمق وهي تلمح خطوات المرأة تجرجر الأرض بضعف تضع أمامها كوب الشاي، سقط عصفور مبتل من أعلى الشجرة، لم يكد الريش يكتمل ليدفئه فاردا ساقه النحيل مرة وأثنان، ارتعشت جناحاه، دار رأسه عكس اتجاه عقارب الساعة يلتمس من التراب عونا، ثم سكن للأبد. وضعت المرأة كوب الشاي بيديها نظرت صفاء لها ولتجاعيد أعلنت عن ذاتها بملامحها، تبادلتا نظرات شـــفقة ودموع كل منهما تواسي الأخرى بصبر، ثم وضعت بيديها عشرون جنيها، ربتت على ظهر يديها وأزاحت كوب الشـــاي بلطف ونهضـــت لتكمل ســـيرها تحت المطر.

تمت بحمدالله